الوعي الجماعي: البشر أكثر ذكاء كمجموعة من كونهم فرادى

إن المقدار الذي نعرفه عن العالم كأفراد هو ضئيل جدا. ويقدر أحد علماء النفس أن مخزن المعرفة لدى الفرد الواحد يبلغ حوالي غيغابايت واحد فقط، أي أقل بكثير من القدر الذي يستوعبه محرك أقراص يو إس بي عادي. وهذا هو السبب في أن معظمنا يواجه صعوبات بالغة حتى في تذكر عدد قليل من أسماء قادة الدول أو رسم صورة دقيقة لدراجة نارية.

فيليب فيرنباخ وستيفان سلومان

ترجمة: حسن المطروشي

وحتى في نطاق مجالات خبرتنا، فإن الجهل يعد حقيقة من حقائق الحياة. فحتى الجراحون الذين هم خبراء جدا في نطاق عملهم، إلا أن هذا لا يعني أنه بمقدورهم تحديد المخدر المناسب أو تصميم دورة فعالة في متابعة العلاج الطبيعي بمفردهم. وهناك أيضا قيود صارمة بشأن تحديد الممارسات المختلفة التي يمكن أن يقوموا بها: وهذا هو السبب في تنوع ممارسات علاج العظام، إذ غالبا ما يكون هناك مجال «الركبة والرجل» أو «الكاحل والرجل». وذلك لأن المعرفة الفردية ضيقة.

إننا نحتفظ بما نحتاج إليه لتوجيه نشاطنا وننسى الكثير من سائر ما نتعلمه. وهذا هو السبب الذي يجعل تعليم طلاب المدارس الثانوية مهارات التمويل الشخصي غير فعالة نهائيا، على وجه التقريب، في تعزيز السلوكيات المالية الإيجابية في مراحل لاحقة من العمر، وذلك تنطبق عليه قاعدة «ما لا تستخدمه تفقده».

إذنًا كيف يتمكن المجتمع من إنجاز الكثير إذا كان كل واحد منا يعرف القليل جدا؟ الجواب هو أننا نقسم العمل المعرفي. فكل واحد منا لديه مجال ضيق من الخبرة، وكل واحد من يسهم على نحو جزئي صغير. ومن خلال الجمع بين معرفتنا الجمعية يمكننا معالجة المشاكل المعقدة. فعلى سبيل المثال، يتطلب إجراء عملية جراحية فريقا كاملا من الخبراء: فنيون للرعاية الصحية ما قبل وبعد العملية، وأطباء تخدير، وجراحون مساعدون، وممرضات. إلى جانب الأخصائيين في مختبرات البحوث الطبية الذين يطورون أحدث التقنيات والعلاجات، والمصممين والمهندسين الذين يبتكرون الأجهزة الطبية، والإداريين الذين يتولون تقدير تكلفة إجراء العملية. إن كل واحد من هؤلاء يؤدي دورا جوهريا، ولا يوجد شخص بمفرده لديه المعرفة والإلمام التام لأداء كل تلك المهام.

وهذه القدرة على السعي المشترك لإنجاز المهام المعقدة هي ما تجعلنا بشرا. وتؤكد إحدى النظريات التطورية المهمة أن أدمغتنا الكبيرة قد تطورت للتعامل مع تزايد حجم مجموعاتنا الاجتماعية وتعقيدها. ومع نمو كياناتنا الاجتماعية، طورنا الآلية العقلية لتبادل المعرفة، ما سمح لنا بدوره بالتجاوب مع بيئتنا المحيطة بطرق أكثر تعقيدا وقدرة على التكيف. وهذه الرؤية تدعمها البحوث والدراسات في علم النفس المقارن.

إن العقل مصمم للتعاون، لكننا نحن نميل إلى الاهتمام بالإنجاز الفردي. إننا نتصور أن أبطالنا يتشكلون في العزلة، ويتقنون كل المهارات الضرورية، ويحلون المشاكل الحرجة قبل أن ينتقلوا إلى مسيرتهم التالية في تغيير العالم. وهذه خرافة، فالإنجازات الكبرى تتطلب القدرة على تبادل المعارف والعمل معا لحل المشاكل.

إن إحدى نتائج هذا الفشل في تقدير الطبيعة الجماعية للتفكير هي أننا نقدس مفهوم الذكاء الذي يعكس القدرة العقلية الخارقة للفرد: القدرة على تخزين رزم المعلومات ومعالجتها بسرعة ودون أية مساعدة. وهذا ما نطمح إليه.

وهذا يؤدي إلى توقعات غير واقعية من أنفسنا ومن الآخرين أيضا. إن لدينا صعوبة في الاعتراف بما لا نعرفه أو ما لا نفهمه، خشية أن يبدو وكأننا نعترف أننا على غير دراية أو معرفة. وكثيرا ما تكون ردود أفعالنا أشبه بالازدراء عندما لا يعرف الآخرون ما نعرف.

ولكن لا ينبغي أن يكون الأمر بهذه الطريقة. فإننا كأفراد لا يمكننا أن نكون ملمين بكل المواضيع، ولا ينبغي أن نحاول ذلك. إن تصورنا للذكاء يجب أن يكون أكثر تركيزا على مدى إسهام الفرد في تطوير قدرة المجموعة على حل المشاكل المعقدة. وهناك العديد من طرق المساهمة في نطاق الفريق، فالشخص الذي يمتلك القدرة على التذكر أكثر أو القدرة على التفكير على نحو أسرع، ليس دائما ما هو الأكثر أهمية. إننا يجب علينا أن نقدّر الأفراد الذين يدركون حدود معارفهم الخاصة ويعرفون كيفية تحديد الخبرة عند الحاجة إليها.

إن خرافة أن بمقدورنا فعل كل شيء بمفردنا ـ أن نتمكن من السيطرة على العالم بكل تفاصيله وتعقيداته ـ قد تكون أمرا محببا، ولكنه ليس خطأ فحسب، بل هو أيضا يؤدي إلى نتائج عكسية تماما. لذا فإنه يتوجب علينا أن نتقبل قصورنا وجهلنا الفردي، بدلا من الاختباء والهروب منه، وعلينا أن نتمسك بحكمتنا الجماعية.

المصدر: موقع كوارتز